دار قصص
وحكايات
للنشر
الإلكتروني
2020

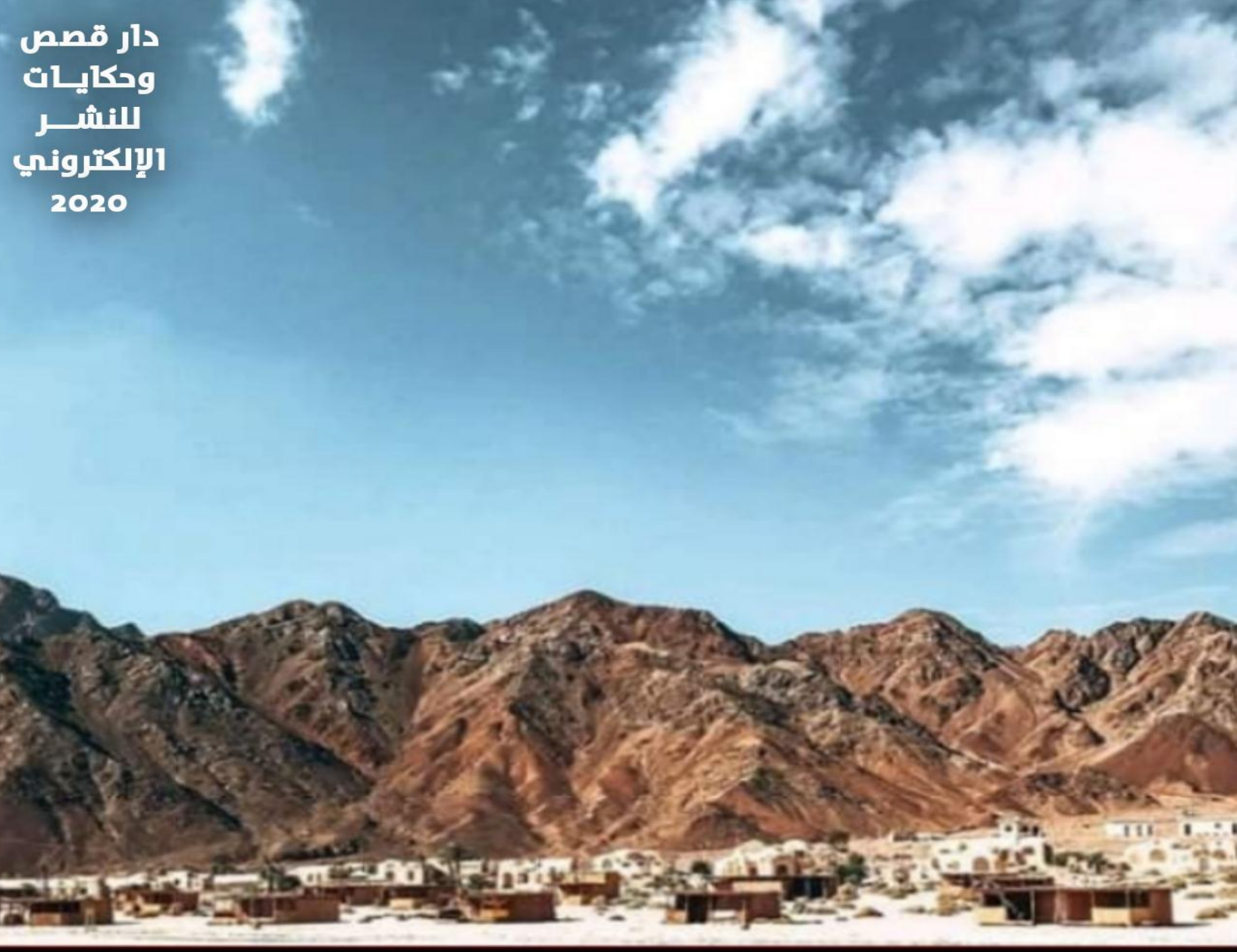

قصة طويلة

أهل القرية

أحمد سليمان أبكر

أهل القرية

قصة طويلة

أحمد سليمان أبكر أحمد

العنوان: أهل القرية

النوع الأدبي: قصة طويلة

المؤلف: أحمد سليمان أبكر أحمد (نبذة)

قوة السرد: كتابات إبداعية

المُدقق اللُغوي: الكاتب بنفسه

اللغة: فصحى

التنسيق الداخلي والإخراج الفني: رمضان سلمي برقي

تصميم الغُلاف: رمضان سلمي برقي

سنة النشر: 2020

الحالة: حصرياً

رقم الطبعة: 1

رقم الكتاب بالدار: 76

تم النشر بواسطة دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني2020

الدار غير مسؤولة عن أفكار الكُتّاب الواردة بإبداعاتهم؛ الكُتّاب وحدهم المسؤولون عنها.

الموقع الصفحة الجروب

إلي أولئك المتشاكسين الذين أضاعوا قريتهم وهم يتلاومون..ليتهم تركوا التخاذل والظنون ..وهبوا إلى صلاح الحال ومستقبل الأجيال.

أحمد سليمان أبكر أحمد

القضارف

الخميس ٢٨نوفمبر٢٠١٩م

الانعزال

العزلة هي المرسى الآمن الذي تلجأ إليه سفينة الإنسان حين تتقاذفها الأمواج،وتصطلح عليها هوج الرياح، وهي الواحة الخصبة التي يفيء إليها المسافر بعد الأيْنِ والكَلال، فيجد في ظلها الظليل راحته من سموم البيداء، ولوافح الرمضاء، وهي المنزلة الأولى التي ينزلها المرء في طريقه من الدنيا إلى الآخرة؛ ليستجم ذهنه، ويجمع أمره، ويعد عدته للقاء لله تعالى؛ لذلك كانت العزلة دائمًا في الشعوب الشقية المضطهدة التي لا إرادة لها أمام إرادة حاكميها الظالمين، وقادتها المتملقين؛بل وهي أيضا في الشعوب التي تزعم التمدن والتحضر وهي تغفل أن لمدنيتها شقاءً كشقاء الهمجية، لا يختلف عنه إلا في لونه وصبغته،فإن وقوف الإنسان في وسط ذلك المزدحم الهائل بين الجواذب المختلفة والدوافع المتعددة، وحيرة عقله بين مختلف المذاهب والشِّيَع والآراء والأفكار التي يحاول كلٌّ منها أن يجذبه إليه ويسطير عليه ويستأثر به،لهو كالريشة في مهب الرياح لا تستقر في قرارٍ ولا تسكن على حال؛ولو أنه كان أسيرًا في قوم متوحشين، وقد أوسقوه إلى جذعٍ شجرة وأخذ كل منهم بعضو من أعضائه يجذبه إليه جذبًا شديدًا ليمزقوه إربًا إربًا، لكان ذلك أهون عليه من هذه الحالة التي لا يستطيع أن يتمتع فيها بهدوء نفسي

وسكون فكري، كما تتمتع السائمة على وجهها في مسارحها،ولا يجد له بدًّا من الفرار بنفسه إلى حيث يجد نفسه،ويظفر بكيانه، ولا سبيل له إلى وجدان نفسه والعثور بها إلا في مثل هذه الدوحة النائية المنقطعة التي يستطيع أن يجمع في ظلالها ما تفرق من أمره، وتبعثر من قوته، ويُصغِي في وسط ذلك السكون والهدوء إلى صوت قلبه حين يحدثه أصدق الأحاديث وأجملها عن الخالق والمخلوق والحياة والموت، والبقاء والفناء، وطبيعة الكون، وأسرار الخليقة؛فيشعر بالراحة بعد ذلك العناء الكبير..

كان يقضي جميع أوقاته في حرث مزرعته وتصريف مياها، وتشذيب أشجارها، وإن شعر بشيءٍ من الملل رجع إلى تلك الأسفار التي اخترها لصحبته حين نفض يديه من جميع الأصدقاء والأصحاب؛ ليحادث على صفحاتها أولئك الرجال العظام أصحاب المبادئ القويمة، والعقائد الثابتة، والآراء الناضجة؛الذين لم يكتبوا ما كتبوا ليوافوا رغبة الناس في أهوائهم ومطامعهم، ولا ليُعَجِّبُوهم من ذكائهم وفطنتهم، ولا ليُدِلُّوا عليهم بفصاحتهم وبلاغتهم، ولا ليفاخروهم بقوة ابتكارهم وغرابة ابتداعهم، بل ليكشفوا الغطاء برفقٍ وهدوء عن وجه الحقيقة، فيراها الناس كما هي غير مشوهةٍ ولا مزخرفة، لا يبتغون على ذلك أجرًا سوى أن يروا الإنسانية الشقية المعذبة ناهضةً من حضيض بؤسها وشقائها إلى ذروة سعادتها وهناءتها..

كان يحمد الله على نجاته من أهل القرية، وخلاصه من أيديهم، وعلى أنه استطاع أن يعيش على حساب نفسه لا على حساب الضعفاء والمساكين، وأن يتناول لقمته مغموسةً بدمه لا بدماء الضحايا والهلكين،وأن يعود بما فضل عن حاجته على البائسين والمساكين والساقطين في هوى اليأس، والمنقطعين عن قافلة الحياة، ولو أن جميع لذائذ الدنيا مأكلًا ومشربًا، وملبسًا ومسكنًا وُضعت له في كفةٍ، ثم وُضعت له في الكفة الأخرى لذته في هداية تائه ضل به طريقه، أو معونة يائسٍ انقطع به أمله،لرجّح الأخيرة.

هكذا كان يقضي حكيم القرية حياته في ذلك الكوخ النائي وبين يدي ذلك الوادي الفسيح،متمتعًا بما شاء من جمال الدنيا وبهجتها، ورغد العيش ونعيمه، ومناظر الطبيعة ومشاهدها، فالسماء فوقه تتلألأ بنجومها وكواكبها، والنهر أمامه يعج بأمواجه، والأرض بين يديه تختال في أثوابها وأبرادها، والأصوات المنبعثة من النهر الصاخب والجدول المتسلسل، والشلال المتدفق والريح العاصفة، والأشجار المترنحة،والطيور الصادحة كلها فرقٌ موسيقية مختلفة الآلات والنغمات، تسمعه ما لم يسمعه يومًا من أيام حياته في أكبر محفل غنائي، من أكبر فرقة موسيقية.

كان يثور في هجعة الليل بغتةً عندما يطوف بعقله طائفٌ من صدى الذكريات الجميلة،فيخرج إلى الوداي ليمشى في أنحائه تحت ضوء القمر وهو يجّتر تلك الذكريات

، ذكريات أولئك البسطاء الأنقياء الذين كانوا يجثون على أقدامهم خاشعين وهم باسطي أيديهم إلى السماء يدعون الله تعالى، بدعواتٍ جميلة يرددونها بصوتٍ شجي وهم يحمدونه سبحانه على نعمة الصحة والعافية؛نعم يحمدون الله أن أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف.

فتؤثر فيه صورة ذلك المشهد تأثيرًا شديدا فيقول في نفسه هامسا:

ويل للذين يحاولون أن يسلبوا أمثال هؤلاء الأنقياء إيمانهم ويقينهم.إنهم يسلبونهم حياتهم التي يحيون بها في هذا العالم وكل ما تملك أيديهم من سعادة وهناء..

ثم يشعر بحزنٍ شديد في أعماق قلبه لفقدان أهل القرية لتلك السعادة النفيسة التي كان ينعم بها الأسلاف،وليتهم يجثون كجثوهم ويهتفون بهتافهم، ويدعون بدعائهم، ويتضرون إلى الله أن يمنحنهم يقينًا مثل يقينهم؛وتواد وتراحم كتواد وتراحم تلك الأسر الطيبة النقية التي ما أن وقف راعي إحداها على عتبة باب الدار وهو عائد من عمله، حتى تهرع إليه زوجته وهي تقبله وتنضو عنه رداءه، ويدور أبناؤه به يلثمونه ويستقبلون لثماته الأبوية الرحيمة، ويستطيرون فرحًا به وسرورًا، ثم يحتملوه جميعًا إلى داخل الدار ويجلسون حوله يحادثونه ويسائلونه عما كابد من أهوال اليوم وشدائده؛يا له من منظر يأخذ من النفس مأخذًا شديدًا،حتى يقول الناظر في نفسه:

يا إلهي..ما أروع أن تحب الزوجة زوجها وتقبل جبينه رحمةً به وإشفاقًا عليه!ما أروع أن يجثو الأبناء على أقدامهم وهم يمدون أيديهم إلى الله تعالى، ضارعين أن يحفظ لهم حياة أبيهم!ما أروع أن يتهلل وجه الأب فرحًا برؤية أبنائه بين يديه سالمين مغتبطين؛إنها السعادة النفسية العالية التي لا تستمد بهجتها ورُواءها من القصور والرياض والأثاث والرياش، بل من صدق اليقين والود المتين.

الانحراف

كان يجلس في كل الصباح على الصخرة الرابضة بجوار كوخه، وهو يرنو ببصره إلى القرية ويقول في نفسه:

يا إلهي ..لقد أضحى أهل القرية لا يعرفون قدر الإحسان منذ أن تسلّط عليهم أقوام متملقون ماكرون من نسل أولئك الذين كان يستعين بهم المستعمرون على غزو القلوب الضعيفة وحيازتها بلا سفك دمٍ، ولا إنفاق مالٍ، أولئك الذين كانوا دائمًا في حاشية المستعمرين ليعينوهم على ما هم آخذون بسبيله من الفتح والغزو، واستعباد النازلين بينهم وتسخيرهم في حراثة الأرض واستنباتها واستخراج معادنها واستنباط أمواهها وتقليم أشجارها، كما هو شأن المستعمرين في جميع الأصقاع التي يعيشون فيها ثم يردف قائلا: يا إلهي.. لقد أضحت القرية ضحية بيد عويش حفيد المتملقين،يحرك شيخها دمية بين يديه كيف يشاء.

عـويش، رجل ماكر في منتصـف عقده الرابع،معتدل القامة، ذو شاربين معقوفين،وعينان يـشع منهما المكر والخبث،يـمشي في ثياب فاخرة وحذاء لامع، ويدخن لفائف التبغ الثمينة ويحمل بيده الناعمة عصا جميلة ذات قبضة ذهبية.

لم يرث النعيم الذي هو فيه عن أبيه لأن أباه كان فقيرًا معدما،ولا عن جهدٍ منه لأنه كسلان متوانٍ، يكره العمل ويظنه مُحطًّا بمقامه،ويراه قد وجد لذوي الأخلاق الباردة والأجساد الخشنة..

إذاً كيف حصل ذلك العويش على المال؟

وأي ساحر حوّل التراب في كفيّه إلى ذهب؟!

منذ ثلاثة أعوام تزوج عويش من سيدة ثرية أرملة تاجر اشتهر بين أترابه بالجد والمواظبة والأمانة، وهي حينئذ في الخامسة والأربعين من عمرها وفي الخامسة عشر من سني عواطفها وميولها، فهي تصبغ شعرها وتكحل عينيها وتطلي وجهها بالألوان والمساحيق، ولكنها لا ترى عويشا إلا قليلا وقلما حظيت منه بغير النظرات الحادة والألفاظ القاسية، فهو مشغول عنها بتبذير الثروة التي جمعها زوجها الأول بكده وعرق جبينه، من جهة ومن جهة أخرى يعيش حالة تملق اجتـماعي قربته من أصـحاب المال، وحالة تملق سياسي قربته من أصحاب القرار حتى أضحى هو من يصنع القرار.

فهو ماكر ماهر يتحدث في هدوء شديد وصوت هو إلى الخفوت أقرب منه إلى الجهر، يعتمد على ألفاظه كأنما يريد أن يثبتها في آذان سامعيه، صاحب لذة بل صاحب إغراق في اللذة وتهالك عليها رغم تكلفه التقوى والورع وإظهاره ذلك إلى أقصى ما يظهر الناس

تكلفهم وتصنعهم، يبدأ ذلك في الثلث الأخير من كل ليلة، فيخرج من مكان إقامته في القرية صاخبا صائحا بذكر الله والتسبيح بحمده حتى يبلغ المسجد، فيقرأ فيه ورد السحر، ويشهد صلاة الفجر،ثم يعود متمتما مهمهما فيستريح في غرفته..

ولمّا تدب الحياة في القرية يذهب إلى مكتبه الإستشاري الملحق بدار الشياخة، وإذا وجبت بقية الصلوات أداها في مكتبه ، أو ربما جمعها في آخر العشاء عند ما يعود إلى غرفته بعد قضاء سهرته الصاخبة في مقهى القرية، أو تثاقل عنها فنام إذا كانت من سهرات المجون التي تنعقد دائما في صوالين الشيخ المخملية..

يكثر عويش الجلوس في مقهى القرية كلما وجد إلى ذلك سبيلا فيتحلق حوله شباب القرية بآذان صاغية وأعناق مشرئبة، فهو الذي يحب الحديث عن لذاته، ويستمتع بتفصيل هذا الحديث كما يستمتع بلذاته نفسها أو أكثر مما يستمتع بلذاته نفسها.

فهو يذكر لذاته إذا خلا إلى أهله ويفصّل ذلك تفصيلا منكرا يقطعه بضحكه الغريب، ويذكر لذاته إذا جلس إلى طعامه الدسم في بلاد المستعمر وحسراته إذا جلس إلى طعامه الخشن في القرية، ويذكر لذاته إذا سعى في شوارع بلاد المستعمر وفي أحيائها، وإذا وقف في حافة الوادي وهو يستنشق الهواء ويلقى بعينيه على سطح المياه الصافية التي تعكس خضرة الحقول، ولم يكن يرى امرأة في شارع إلا فصّلها بعينه تفصيلا، وحللها في

نفسه تحليلا، وجرّدها من ثيابها تجريدا، ووجد في هذا الجهد الآثم لذة لا تقل عنه إثما، ثم يرفع رأسه مخرجا من بين شفتيه سحابة من دخان التبغ، وهو يفرك جبهته كأنه قائد عظيم يهم بفتح مملكة عاصية ويطلق عبارته المتكررة (النساء يسرن ممدودات الأعناق غامزات العيون وعلى ثغورهن ألف إبتسامة وفي أعماق قلوبهن غرض واحد)، ثم يقهقه ملء فيه..

ثم يسترسل في قص حكاياته ونثر ملذاته وهو يرسل الضحك ويمسكه، وقد ملك على هؤلاء الشباب أمرهم بما يلقي إليهم من حديث، وأي حديث أبلغ أثرا في نفوس الشباب المحرومين من تلك اللذات بريئها وآثمها من ذلك الحديث..

عويش شخصية أدمنت التملّق واحترفت الإجرام فاستحالت عبر الايام إلي مسخ لا يري حياة له إلا بمعاناة ضحاياه، حتماً ليس هلاكهم لأنهم إن هلكوا فلن يجد ما يتغذى عليه وذاك هو الهلاك الحتمي له فهو لا يرجو التعافي لضحاياه؛كما أنه لا يفضل موتهم فهو يمثل حلقة الوصل لطبيعة تبادل المنفعة بين نخب القرية التي نَصَّبَت نفسها قيادة ملهمة تزود عن الحياض ، لكنها لا ترجو لهم التعافي، ونخب السلطة الذين ينتهزون هذا المناخ العكر ليروجوا لمصالحهم غير مكترثين لما قد يصير إليه أمر الاثنين أو أهل القرية من قبلهم.

حتى أولئك الذين يتمردون على ذلك الوضع فيؤلفون جمعية إصلاحية ترمي إلى النهوض والانعتاق، فيخطبون بشجاعة ويكتبون بحماسة وينشرون اللوائح والبرامج ويبعثون الوفود والممثلين، ولكن لا يمر الشهر أو الشهران حتى يقال لقد عهد الشيخ إلى رئيس الجمعية بوظيفة، أما الجمعية نفسها فلم يعد يسمع عنها شيئا لأن أفرادها قد تجرعوا قليلا من المخدرات المعهودة وعادوا إلى السكينة والإستسلام..وهكذا يظل أهل القرية مضطجعون على فراش الهوان، يستيقظون دقيقة عندما تلسعهم البراغيث، ثم يعودون ويهجعون جيلا بحكم المخدرات التي تمازج دمهم وتسير في عروقهم..

لقد أصبحت القرية غابة أهوال تسكنها بشرية لا تقضي نظمها ببقاء الأنسب بل بدوام الأروغ والأحيل، ولا يؤول تدبير شئونها إلى الأفضل والأقوى بل إلى الأخبث والأكذب، أما قادتها مخاليق عجيبة لهم مناقد النسور وبراثن الضباع وألسنة العقارب ونقيق الضفادع، أما مقيوديها فأضحوا يلوكون الكلام متسلين به عن الطعام، ويرشفون الأفكار مستعيضين بها عن الشراب.

الانهزام

لقد رفعت الأقدار أولئك المتملقين العابثين في موضع الحكم والتمكين فزرعوا الأحقاد وفرّقوا الجماعات، حتى أضحى الناس في تعاسة وشقاء رغم أن كل شيء متاح أمامهم، إلا أنهم لا يدرون ماذا يريدون؟

نعم كل شيء متاح،الأنهار تأتي بمياهها الحمراء المتوهجة والبيضاء الصافية وهي ترتفع حتى تفيض على الضفاف في كل عام،والأمطار تجلجل رعودها، وتعصف رياحها، وتتدفق سيولها، وتصخب أمواجها وهي تملأ القيعان وتغمر الآكام كل أربعة شهور في العام، والأرض السوداء تتهيأ وتتغطى بالطمي في كل عام تنتظر من يشقها ويخرج ثمارها، ولكن هيهات لم يعد هنالك من يغرس أو يزرع، إلا القليلون لقد إنغمس الناس في عالمهم الجديد عالم الجري وراء الثراء دون جهد،فسلكوا طريق الإقتراض والمرابة بعد أن غرتهم تجربة شيخ القرية الذي إزدهرت تجارته المزعومة القائمة على إحتكار السوق وتجنيد ضعاف النفوس للعمل معه مطوّعا كل ما لديه من سلطات في حماية تجارته ومن خلفه المدعو عويش وعصابته يزينون له الأباطيل والإستقواء على أهل القرية الذين كانوا ولا زالوا ينتظرون صفاء الأيام لهم وابتسام الحظ في وجوههم كما ابتسم لشيخهم الذي أدخلت

تجربته القرية عالم الفضائيات يوم أن جلب مولدا لتوليد الكهرباء وأول طبقين فضائيين في القرية ، حيث نصب أحدهما في النادي ونصب الآخر في مقهاها،الأمر الذي دفع بالجميع إلى عالم الإقتراض كل بضمان ما يملك، فمنهم من اقترض طمعا في زيادة نشاطه التجاري والتوسيع على نفسه حتى يجني المال ويظهر بمظهر الأغنياء، فيلبس أفخم الثياب وينتعل أغلى الأحذية ، ويعمد إلى تخديم عدد من البياعين ويجلس هو من خلف مكتبه يأمر وينهى سيد في متجره؛ومنهم من اقترض حتي يجاري أهل القرية فما ذهبوا إليه من تغير فيشتري مولد وطبق فضائي ينصبه في صحن الدار الأمر الذي سيحدث تحولا كبيرا في حياة أسرته التي تصير أسيرة متلقفة لثقافات تلك الشاشات المسمومة، التي كثيرا ما تبعدها عن الجدية والفضيلة وتقربها من الهزل والرزيلة..

لقد تغيّرت حال القرية وأخذ أهلها يتبطلون في المقهى نهارًا والنادي ليلًا حتي تلاميذ المدارس وطلابها أخذوا يتسيبون عن الدراسة ويندسون في المقهى طوال النّهار.

بعد عام من ذلك التغير الهلامي أخذ حال القرية في التراجع بعد أن تقاعس كل ذي نشاط عن نشاطه من جراء الانغماس في مشاهدة الفضائيات وغيرها من مظاهر اللهو في وضح النّهار ومعظم سواد الليل،فكان الخمول الذي جعل الكثيرين ينتظرون العمالة القادمة من خارج القرية لتقوم بأداء أعمالهم بدلا عنهم.

لقد دفع بعضهم ثمن حبه للمال وكرهه للفقر متجره الذي ورثه عن أبيه، بعد أن استغرق في مظاهر الغنى الزائف، واثقلت الديون كاهله،بل ودفعت به للتنازل عن كل ما يملك من أطيان وعقار للشيخ نظير تسديد الديون التي عليه؛ومنهم من خسر متجره لصالح الشيخ وأصبح مجرد عامل فيه وغيرهم الكثير من قاصت أقدامهم في أوحال الربا والكسب الباطل.

انضم كل هؤلاء إلى دائرة هرطقة السياسة وشهوتها التي لا زالت تفرض سطوتها على القرية منذ نصف قرن من الزمان بل وتتسع يوما بعد يوما وهي تتدفع بالجميع إلى مزيد من التشت والتفريق والتشرذم والتخلف.

لقد كان الأسلاف يمارسون إعمار الأرض بفطرة تلقائية،وسجية حتمية ولكن وا أسفاه لم يبقى من المنتسبين إليهم إلا القليلين الذين نجو من وباء الإدعاء المزدوج مابين الانتماء إلى الأرض والافتخار بنقاء العرق الوافد؛أولئك الأحفاد الذين ما انفكوا يخططون الأرض، ويرممون جداولها ويصلحون سواقيها ويغرسونها ببذور القمح والذرة وغيرها من المحاصيل كل عام،وعلى مدى آلاف السنين هم صامدون تتشرب أجسادهم ندى الفجر ولا يجف عرقهم إلا مع غياب آخر ضوء؛ولا زالت لمستهم السحرية هي التي بفضل الله ومنته تنقذ الجميع من الإنقراض، وتمكّنهم من مقاومة الغزاة والأوبئة وعسف الحكام،أما

أولئك المتملقون ومن لف لفهم من أهل القرية، فقد انصرفوا عن الجادة وتكدسوا في وحل صراعات التحزب وركض خلف كرسى الحكم،وهم لا تهدأ لهم حال ولا يثمر لهم مقال،يتقلبون تحت سطوة الشيوخ شيخا بعد شيخ،تارة بسخطهم على شيخ خذلهم لضعفه بعد أن اختاروه وتارة أخرى باستسلامهم لشيخ خفر انقلب على شيخه فصار شيخا،ثم ما يلبث أن يطول بقائه ويتثاقل ظله ويتحول إلى طاغية يذيقهم صنوف الذل والهوان حتى يثوروا عليه وتدور بهم الدائرة كما بدأوا أول مرة وهكذا هم في غيهم وضلالهم يعمهون..

الإحباط

كثيرا ما يستعين شيوخ الخفر بالمؤامرات والدسائس في سبيل الوصول إلى سدة الحكم،أي أنهم لم يكونوا ليصلوا إلى ذلك لو سارت الأمور بصورتها الطبيعة، ولذا يكونوا متسلطين وما على الرعية إلا السمع والطاعة ولا يوجد من يخالفهم فهم يسخرون كل موارد القرية من أجل مصالحهم الذاتية، ولا يعترفون بأي نوع من الرقابة أو المسائلة، فلا يحاسبون مهما ارتكبوا من أخطاء ولا يرعون مهما أوغلوا في الظلم والفساد، وعندها يبدأ الرعية في تملقهم والتزلف إليهم وهم لا يصدقون هذا التملق فحسب ولكنهم يصدقون أنفسهم بأنهم محبوبون لدى الجميع..

ويزيد في تسلطهم خوف أهل القرية المتأصل في نفوسهم والذي يصيغ عليهم إزدواجية المواقف ، فهم لا يفكرون بصوت مسموع، ولا يهتدوا بطريقة واحدة ولا يعملون على قتل تلك الشخصية المزدوجة داخل كل منهم، تلك الشخصية التي ترفض كل شيء في الخفاء وتوافق على كل شيء في العلن، الأمر الذي لن يمكنهم من منع قيام مشيخة الخوف مرة بعد مرة..

نعم لقد ظلّوا يرفضون بشدة قهر الظلم لإرادتهم، بأن يتفوقون على كل آلامهم ويثورن على ظالمهم، وليخلّصوا قريتهم من القهر، وهم يتطلعون إلى حياة جديدة مليئةبالعطاء والنماء، ولكن ما أن يتولى شيخهم المنتخب شأن القرية حتى تدب الخلافات بينهم وينكثون غزلهم ويعود إليهم الإحساس بالبؤس والشقاء وهم يسمعون صرخات الشؤم من بعيد مع استمرار هبوب الإحباط الذي يدفعهم إلى الاستسلام للشيخ خفر بأن يكون شيخا عليهم، ثم ما يلبث هو الآخر إلا قليلا حتى يتحول إلى ظالم مستبد، فيحلق القوم في الفضاء البعيد بعيون دامعة دون أن يروا شيئا، إنها دموع اليأس هي التي تتدفق فوق وجهوهم مرة بعد مرة دون فكاك..

لا زالوا يمنون أنفسهم بأن يلوح أمامهم الأمل قويا لا تبدو عليه ملامح الهروب،وهو واقف بينهم، فيهمسون في أنفسهم قائلين:

ذلك هو الزمان العادل إلى جواره الأمل المشرق الذي سكن بين ظهرانينا، ويجب علينا أن نتوحد لنرسي حياة جديدة..

لكن هيهات لقد اختفى الأمل وحل محله الإحساس باليأس عبر سود الياليي وأخواتها، وابتعدت شواطئ المحبة والتسامح المشمسة لتستبدل بها مساحات من ألوان التنازع والتخاصم، وإذا بعواصف الضربات غير المنتظمة تهب على الاستقرار فتسحقه مرة بعد

مرة حتى بلغ حد التلاشي،وأهل القرية لا زالوا يبحثون عن بوصلة تمنحهم الحقيقة وهم يلقون بأنفسهم في فراغ مشحون بالتوتر..

لقد ظلوا يبحثون عن خيط الأمل في ظلام التيه الذي طال بهم وهم يمنون أنفسهم بأن يفصح لهم بفضل شفافيته عما بداخلهم، وينتقل بهم من هيئة الصمت المصمتة إلى هيئة البوح الكاشفة عن مكنون الأسرار التي يجهلونها عن حقيقة العتمة التي تصنعها ظلال نفوسهم الداكنة ومشاحناتها اللامتناهية..

لقد اندفعوا في الظلام الموحش حتى لم يعودوا يبصرون شيئا بل فقدوا حتى قدرتهم على الإحساس بأي شيء، وها هم الآن يتحركون بحذر نحو الفضاء الذي غابوا عنه كثيرا، الفضاء الذي ظل يدينهم إدانة صامتة ويتوسل لهم في هدوء ممزوج بالشفقة والازدارء بأن يثوبوا إلى رشدهم ويكفوا عن غيهم،لكنهم لا زالو غير مكترثين بأي الطريق يسلكون ولا يهمهم ذلك الأمر كثيرا، فهم فقط يريدون أن يهربوا ويمضوا إلى أي مكان، إنهم يريدون أن يبتعدوا عن البؤس والفقر والإحباط ويمضوا بعيدا عن كل شيء يجعلهم يتذكرون القرية وشيوخها الظالمين،لقد تلاشي أملهم وفقدوا اهتمامهم بكل شيء، فلقد كانت خيرات قريتهم سببا في اشتعال نار حسد القرى الأخرى التى سعى أهلها للوقوف دون استمتاعهم بتلك الخيرات كما حدث معهم طوال العهود، فهم لا زالوا يذكرون تاريخ

الغزوات المتكررة التي تعرّضت لها قريتهم من هنا وهناك،وللأسف ما كانت لتلك الغزوات أن تكون لولا تآمر ضعاف النفوس منهم الذين كان ديدنهم مداهنة الأعداء طمعا في تحقيق ذواتتهم التي رفضها المجتمع..

لقد حظيت القرية بمساحات واسعة تزخر بكل أنواع الخير الظاهر والباطن، ولكن مفكريها حُرموا من أن يقدموا الإبداعات التي تليق بهذه النعم وهذا الامتداد الزمنى، ولم تتوفر لهم الحرية الكافية للإبداع العقلي والفكري بل لم توافر لهم ولا لغيرهم درجة مناسبة من التسامح مع الرأي الآخر، حتى يشغلون الدنيا بمخترعاتهم وابتكاراتهم.. وبسبب ضعف المشايخ الممنتخبين وشيوخ الخفر الغاصبين المستبدين الذين ما فتأ ظلهم يدفع بالمهمشين الساخطين بأن يشقوا العصا مرة بعد مرة حتى أضحت القرية موضع شد وجذب أقعد بها دهرًا، وقد يهوي بها من درك إلى الدرك..

غمر الليل القرية ووواديها بردائه الأسود ونمت العاصفة وغزرت الأمطار حتى خّيل له أن الطوفان قد جاء ثانية ليطهر الأرض من ادرانها. وكأن ثورة العناصر قد ولّدت في نفس الحكيم تلك الطمأنينة التي تجيء في بعض الأحايين مظهرًا لرد الفعل فتحول نفوره من البشر إلى الاستئناس بهم، وهو يأمل أن يخرج قومه من اليأس القابع في ذواتهم المحطمة، وأن لا يهجروا هذا الترف الذي رمى بالأسلاف على حدود هذا الوادي

الفسيح الخصيب. لقد قالوا له وهو صغير إنها أرض أجداده، إنها كنز عظيم لا حدود لها غير الأفق والسماء،وإرث تليد للآتين جيلا بعد جيل.

الانحدار

لا زال يشتم رائحة العشب الذي ترتديه الأرض في كل خريف،حيث تبدأ الحياة في كل يوم بصخب جميل، يري فيه الصبية يركضون كالغزلان تداعب الريح أجسادهم الرقيقة، إنهم رمز الحيوية والنشاط من دونهم لا قافلة تسير ولا مستقبل يشرق،وتبدأ الحياة في القرية والضجيج يتصاعد من أكواخها،ولم يعد للصمت وجود،لقد كان يرى كل شيء أمامه جميلًا،وهو يمتص نقاوة ذلك العراء ويشبع عقله بصفاء الكون وعناصره الباهرة،أما الآن لقد جمد في مكانه مفزوعا، يشعر بالدم في عروقه قد تخنّثر،واجتاحته رجفة حزن قوضت كل جسده و هم يسأل نفسه بفزع ومرارة:

ما الذي دهى أهل القرية وهم في كل عام يُرزلون،يا ترى أ هم ضحية أنانيتهم التي تدفع بهم دائما إلى التدابر والتنافر؟ أم ضجية ضباع المدنية الزائفة التي لا تخافهم لضعفهم ، لكنها تدمرهم بأنياب من ورق،؟ أم ضحية الأمرين معا.

ما زال الحكيم في حيرة من أمره وهو يرى في هذه الظلمة الدامسة شهبا تشرق وتتلاشي،لقد أضحى الكثيرون يغترفون المعاصي ما ظهر منها وما بطن،أحيانا على استحياء وأحيان علانية،ولسان حالهم يقول أن لا يُتسرّع في الحكم عليهم، بأنهم ليسوا

من الفساق والعياذ بالله، بل هم بشر طيبون كغيرهم من الطيبين ، ذنوب الواحد منهم لا تتعدى النظر إلى حسناء بطرف عينه اليسرى، أو الهمس بلسان سوء في حق بعضهم،وبعض الأحيان يتماطلون في رد الديون إلى أصحابها ولكن ليس بسوء نية وإنما للفقر المدقع الذي يكبلهم، وقد يتساءلون بخبث قائلين:

من أين هبطت الثروة على رأس شيخ القرية الذي نعرفه فقيرا لا مال له، وهل لذلك علاقة بتجارته المريبة مع تجّار الحشيش، ربما استغرب بعضهم أشياء لا علاقة لها بالمال،مثلا كأن تتمد أفكار الشيخ إلى كل من حوله وهو يقول لهم هذه فرصتكم، افعلوا كل شيء، أفهموني جيدا لا تتوقفوا عند حد، كونوا أنذالا بمعني الكلمة، تملكون الكثير من الأنذال أسألوهم سيخبرونكم عن أصول النذالة والخسة، في داخلكم الكثير من الدناءة ابحثوا عنها؛استخرجوها من أعماق صدوركم..

يقول الشيخ ذلك وهو يخاطب وفدا يمثل أنذال القرية، وهم جلوس على بساطه، بعد أن عرضوا عليه نذالتهم وخستهم، لكن كانت النتيجة مخيبة لأمله وهو يقول لهم:

مصيبة إذا كانت هذه نذالتكم، أنتم أنذال مبتدئون، وأنا أشعر بخجل لا مثيل له، هيا انهضوا من أمامي وجدوا في تضعيف نذالتكم..

انتهى الأمر بأهل القرية بأن تحولوا إلى أنذال حقيقين، فقدوا برائتهم وهدموا كل صرح للخير في صدورهم، هتكوا الأعراض، وشهدوا الزور وأقسموا بكل مقدس كاذبين، كانوا يصلون بلا روح، ويسبحون الله بألسنة تمتهن النفاق..

لقد استغرقوا في المعاصي حتى ملأ اليأس أكبادهم وامتلأت أفواههم بمرارة الهزيمة،وكان الشيطان يقف مذهولا يتطلع إلى القرية المترعة بالمعاصي،فيما كان شيخ القرية المخلوع يضحك ملء فيه فقد اغترف ذنبا لم يخطر على بال وهو يقول:

يا أبناء قريتي الأعزاء، لقد فعلتم كل ما بوسعكم وأنتم شركائي في كل شيء رغم ثورتكم على وتدثركم بالطهر والنقاء، لقد فكرت طويلا واكتشفت معصية لم نقترفها بعد، لم تبق إلا الخيانة لقد بعت القرية بواديها للأعداء..

نعم لقد قال الشيخ ما قال وهو مفتخرا كافتخاره بإرث جده العويسي الذي ما جلس في صدر محفل من المحافل إلا سرد أخباره وعدد مآثره، وهو يزهو مختالا متبذخا متبجحا،يقول العارفون بسر ذلك الإختيال هو أنه في الربع الأول من القرن العشرين، بينما كان مفتش مركز الاستعماري سائرا مع كوكبة من مساعديه بين أودية الناحية مرّ بقرب القرية، ولما كان النّهار حارا والشمس تريش الأرض بسهامها الدقيقة فتكاد تحرقها

،ترجل المفتش قائلا،لمساعديه عليهم أن يأخذوا قسطا من الراحة في ظلال هذه الأشجار التي في محيط القرية..

علم العويسي جد الشيخ بـذلك فنادى جـيرانه المزارعين وأخبرهم بوجود المفتش على مقربة من قريتهم، فساروا وراءه نحو تلك الأشجار حاملين أطباق من الفاكهة وجـرار من اللبن. ولما بلغوا المكان تقدم العويسي وقبّل الأرض بين يدي المفتش، ثم نحر كبشا أمامه وهتف مثنيا عليه،سر المفتش من صنيعه وبشّره بأنه سيكون شيخ الناحية وقد كان.وها هو الزمان قد دار دورته وحفيد العويسي أضحى شيخ القرية. الحفيد الذي كان ذكاؤه أضأل من إقباله على العلم، واستعداده لفهم العلم أقل من إقباله عليه، وكانت غربته بين التلاميذ كغربته بين الكتب، ولما استيأس من العلم انضم إلى صفوف الجندية،ومازال كذلك حتى سطع نجمه في الناحية بموالاته للشيخ الذي سبقه فعينه الأخير شيخا للخفر، وقد أضحى عين من أعيان القرية، الأمر الذي جعله أكثر ثرثرة من ذي قبل، فما أن جلس في جماعة إلا وصب هراءه عليهم بغير حساب، فكانوا يسمعون له ويضحكون، فهو دائم الإجتهاد في أن يفصل بين أحاديثه تلك بكثير من الفكاهات التي كان يراها غريبة مضحكة، فيضحك لها و يطيل لها الضحك، وقد مرت على جلسائه فلم تضحكهم ولم تلفتهم،ولكنهم رأوه يضحك فوجموا،ثم رأوا ضحكه متصلا فضحكوا، ثم رأوا إغراقه

في الضحك فأغرقوا فيه،وكان ضحكه حقّا غريبا، فقد كان يبدؤه عاليا ثم يقطعه ويضحك صامتا لحظة، ثم يستأنفه عاليا ثم يقطعه ويمضي فيه صامتا، ثم يستأنفه وهكذا؛وكان صبية القرية يسمعون لأحاديثه فيحفظونها ويثبتونها في أنفسهم طريقته في إلقائها وإذا خلوا إلى أنفسهم أعادوا أحاديثه، ورددوا ألفاظه، وقلدوا ضحكه وقضوا في ذلك ساعة سمر ولعب وضحك..

ذاك هو الشيخ الذي باع القرية وترك أهلها يتلاومون وفي حيرتهم يعمهون،وقلب حكيمها في عزلته يتمزق لوعة وأسى،ونفسه تسيل رحمة وإشفاقا ولسان حاله يقول:

لقد كان بإمكاني أن أكون بينهم، ولكني هجرتهم لأن أخلاقي لا تنطبق على أخلاقهم، وأحلامي لا تتفق مع أحلامهم، تركتهم لأنني وجدت نفسي دولابًا يدور يمنة بين دواليب تدور يسارًا، تركت القرية أنني وجدتها شجرة مسنّة فاسدة قوية هائلة،عروقها في ظلمة الأرض وأغصانها تتعالى إلى ما وراء الغيوم، أما أزاهرها فمطامع وشرور، وأما أثمارها فويل وهموم،وكم حاول بعض المصلحين تطعيمها فلم يفلحوا،بل وماتوا قانطين مضطهدين مغلوبين على أمرهم.

تمت

نبذة عن المؤلِّف

الاسم:أحمد سليمان أبكر أحمد

الميلاد:قلع النحل في ولاية القضارف (شرق السودان)،العام ١٩٧٢م.

التعليم:الإبتدائي و المتوسط بقلع النحل، الثانوي بمدرسة كسلا الثانوية القديمة بنين،ثم جامعة أم درمان الإسلامية (كلية الاقتصاد و العلوم السياسية)،التخرج في العام ١٩٩٨م بدرجة البكالوريوس في العلوم السياسية.

المؤهلات العلمية:

***بكالوريوس علوم سياسية(كلية الاقتصاد والعلوم السياسية _ جامعة أم درمان الإسلامية ١٩٩٨م).**

*** دبلوم لغة إنجليزية(مركز السودان القومي للغاتِ (سلتي) ٢٠٠٢م.**

*** ثلاثة دبلومات في اللغةِ الفرنسيةِ (DELF)(المركز الثقافي الفرنسي) ،(وزارة التعليمِ العالي،فرنسا، ٢٠٠٨،٢٠٠٧م).**

الأنشطة الأدبية:

***عضو منتدى دار الحكمة الثقافي (أم درمان).**

***عضو الإتحاد العام للأدباء و الكتاب السودانيين.**

***مؤرخ و مؤلف لكتب و قصص قصيرة.**

أعمال سابقة:

– كان أول كتاب هو توثيق لمنطقة قلع النحل (مسقط رأسي)، هو (الطريق إلى قلع النحل _العمارة و الجبل) الذي صدر في العام ٢٠١٥م عن صندوق رعاية المبدعين (ولاية القضارف_السودان)

و نلت بصدوره وسام الإبداع من ولاية القضارف..

– ثم تلا ذلك كتاب (أوائل في السودان) الذي هو مودع و لكن لم ينشر بعد و من ثم (كتاب الريف المكنون) الذي صدر عن مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة (مصر، القاهرة) في العام٢٠١٨م.

– و كتاب (Enlish For All Levels) الذي صدر عن مؤسسة (LAMBERT Academic Publishing) في العام ٢٠١٨م.

– قصصية بعنوان (الحب اليباب) كانت ضمن أفضل عشر كتاب من بين أكثر من مائتين كتاب أشترك به في مسابقة (صوت الابداع) التي أقامتها دار نشر كتبنا (بالقاهرة) فلذا جاءت في القائمة التي تلت قائمة الخمسة الفائزين مباشرة.

–هنالك كتب أخرى لم تنشر بعد و بعضها تحت التأليف.